مبارك وساط

عَلى دَرَج المياه العَميقة

شِعر

رَقميّات
مَنارة

الكتاب: عَلَى دَرَج المياه العَميقة (شِعر)

المؤلّف: مبارك وساط

طبعة ثالثة - رَقميّة- صِيغة نِهائيّة

الرّقم الدَّولي EBIN - إبين : 73-1-1-251105

منشورات منارة

البريد الإلكترونيّ :

manara.litterature@proton.me

***

الطّبعتان السّابقتان، الورقيّتان، لهذه المجموعة،

صَدَرَتا عن:

* دار توبقال (1990)

* مَنشورات عُكاظ (2001)

مـبـارك وسـاط

عَلـى دَرَج الميــاهِ العَمـيقـة

طبعة ثالثة، رَقميّة (أكتوبر 2025)

صيغة كاملة، نِهائيّة

منشورات منارة

رَفيفُ أجنحة يُضرِم حقولاً

حين تنــدلع حُمَّى الأَخْيِلــة في ثُقــوبِ اللَّيــل، أَنْصِــتْ لِلهسيس المُنبعث من أعشابِ عقلِك الذي ينتظر إشارةَ مُرور إلى ضـفَّة مأهولـة بالـدُّوار. تَسـمع هينَمـةً في مِـرآة تَعكس ظلالاً؟ إنَّه المجنُون يُقلِّـد عَظـاءة روحـه. لسـانُه فلاةٌ يَــرقص فيهــا الحَجــر. شــرايينُهُ تَجــأر بالشَّــتائم وبِالهَديل. يُفكِّر أنَّه نبتة قُرَّاص، أنَّه غيمة...

حين تَعبرُ فراشاتُ السَّهَر أمام عينيكَ اللّـتينِ تتجاذبـان لُغزاً قادماً من جُزُر أَحلامك، تحسَّسْ صَدْرك الذي تَرتعُ فيه فُلول الكلمات. رَفيفُ أجنحةٍ يُضرم حقـولاً، في مكـانٍ ما مِن هـذه المَتاهـة، والمجنـونُ يَتمـدَّد تَحت شـمسٍ من صُــنع أسـلافه... حين تُــومِض في قلبــك موســيقى الـبراري المُوحِشـة، سـتَقطفُ فاكهـةَ نومـه مِنْ جَنـائنَ مُضاءَةٍ بِالهذيان.

أماكن

في شارعٍ جانبيّ

وجهٌ أليف

يَتكاثر في انتظاري

في ضاحية قريبة

قبيلةٌ تُقيم طقوسَ نَدَمها

في ميدان المعركة

سَقط ضحايا كثيرون

تحت حوافر الأصيل

فِي ذاكرتي

مُدن تَهْمي عليها أمطار وأحزان

في غابةٍ ما

امرأةٌ تُقبِّل ذئباً كسيحاً

على رصيفِ مقهى

قَمرٌ ينزف

في سُرَّة ميت

على عتبة غابة

هياكلُ عظميَّة

تضحك للنُّجوم

في كوخ مهجور، أنام

مُتستِّراً على صيحتي.

خَلْف نافذتي

خَلف نافذتي المُرَصَّعة بِالبروق
تَقصفُ أجنحةُ الفجر
نُجَيماتٍ وليدة

في الحُقول المُنهَكة
حيثُ تتناجى بُقَعُ دَمٍ وأزْهار
يَرسم بحَّارٌ مَسلوخ
أشرعةً ومجاذيفَ
على صفحة جلده المتهدِّل
ويُحَدِّق عرَّاف بعينيه الزّجاجيتين
في غُضون إلهٍ مُحنَّط

بينما يتدلَّى جنديٌّ باسماً

مِن المِشنقة

أولئك أَسْلافي

وما عادوا يَتعرَّفون عليَّ

لقد قَصُرَتْ قامتي حقّاً

بِسبب الصّباحات الشّاحبة

التي تَضغط على كاهلِي

عِند اليقظة

لستُ متوجِّساً من هذا

فما دام قلبُ المرآة يَنبض

ثمَّة أملٌ كبير

فِي انبعاثِ الشِّفاه من رَمادها

إذَّاكَ سَتَيْنَع القُبل

وتَستمتع عظامُ الموتى

بِغِناء النَّمل...

أتنصَّت لأشْجان موجةٍ يتيمة

بَعد قليل أخرج للتَّجوال

سيكون لِرُكبتيَّ شكلُ شُعلة

أنا لا يُرعبني لُعابُ الفوانيس

ولا سُعال الذِّئاب

خَلْف الواجهات الأنيقة

لكنْ أَخْبِروني

لماذا يتدثَّر المرضَى

بمعزُوفة الرِّيح

وأين هي سُرَّة الصَّحراء

الحَنجرة تنتظرُ لحظة نُضوج الصَّرخة

الجرادة تتأوَّه على قِمّة المدخنة

هنالك مُفاجآت كثيرة في جنبات المدينة:

لقد شُرِع في صَلب النّادل أمام المقهى

لقد تساقط ريشُ سنونو

على كتفيَّ الحالمتين

أنا رأيت ممرِّضين عُراة

يُجلَدون داخل كهف

ومساءً يُوضَع في تابوتٍ من غبار

وزوجين سعيدين حقّاً

لهما ذرِّية من فلّين

وها أنت يا ذكرياتي

تتزحلقين على ثلوجٍ

مِن حَرير

تفاصيـل الدَّهشـة

الأنوارُ شاحبةٌ على سِيقان اللّيلَك

الخُطَى مُحطَّمة على بَلاط الشوارع

الأمواجُ ساكنةٌ في جنبات الحدائق

لا شيء تغيَّر

بعد أن هجرتِ هذه النَّافذة

حيثُ يضحكُ العصفور

هذه الغرفة حيثُ الماء يَحيا ويُفَكِّر

والآنيةُ مُثْقَلة بِسُهادها المعدنيّ

فنظرَتُك وآهاتُك ورنينُ أساورك

ما تزالُ منثورةً على الشّراشف

وفوقَ المنضدة المبقَّعة بالحِبر

حيث يُفْرِد جناحيه ولا يطير
تِمثالُ بُراقٍ نُحاسيّ

للأسفِ لم أستطع أنْ أَبْدوَ يائساً
مثل نَشيدٍ ناضب مثل جدولٍ هَرِم
لأنَّ تفاصيلَ الدّهشة تمَّتْ خارج حياتي
لأنَّ أنْفاسي تتلعثمُ في العَراء
فيما الثَّلج يَتساقط مِن سَقف الغرفة
ويلعب في حِضني كطفل

لا شيء تغيّر
هيْنَمَة الوزّال تَسري في المروج البعيدة
والسَّماء تنثُّ رَذاذ الهذيان

وأنتِ تتخلَّصين مِن دمك وتَجْرين

بَين أشجارٍ غافيةٍ

وَعَلى أرصفةٍ تَغصّ

بِعَذاب المُوسيقى

كان قوسُ قُزَح يَتزحلقُ على كَشْحٍ هَضيم

والزَّبَدُ يُكرّر أحلام المحيط

كانت أحلامكِ تتبعك

وأنت تتلذَّذين بالهمس وبالكلام

وفي منتصف العبارة تختفين

تاركةً طيفَك في المرآة

وجهَك في بدايات النّهار

وثوانيَك الزَّرقاء

في قلب السّاعة الذهبي

لا شيء تغيَّر
رعشتُكِ تَنسرب في خروم الدَّنتيلّا
وأنا أبتكرُ سيرةً لوردٍ عابر
قبل أن أَغمس عينيّ في لُعابِ الوسادة
المُرصَّعة بنومك وعطرك
وأُنصتَ لِطحالب المُستنقعات
وهي تنمو بين ضلوعي
في هذه الغرفة الكئيبة
كابتسامة القتيل
حيث الوقتُ دائماً
منتصفُ اللّيل

حرائق

كَمْ جَهَـدنا لِنَرسـم البَسـمات على شـفاهنا الكئيبـة، وحاولنـا أن نُنصـتَ لِلضَّـجّة الخافتـة في قعـر الجِـرار، لأجنحـةٍ تنتفض في كوابيسـنا، وكثـيراً مـا جلسـنا بين الخـرائب، في الأماسي المنخـورة بالحكايـات الطّائشـة، عُيوننا تترصَّد خُطَى السَّاعات، وفي أفواهنا تنمو أغصـان اللّيل المتقيّحة.

كم شُدِهْنا وَنَحن نسـمع المياهَ تُدمـدم، ونـرى أقمـاراً معتوهة تَسـقط في أحبولـة الألم، والعـانسَ الـتي تنسـج الرَّايات، والرُّعاةَ إذ يَنطفئُون كَشموعٍ في البرد.

كم ذَرفنـا مِن دموعنـا الخضـراء ونحن نسـمع تلـك الطِّفلة المشنوقة بِحبال الأفق تُكرِّر كلَّ ليلة: "جميلٌ من النُّجـوم أنْ تَكشـف عن أسـنانها الذَّهبيـة لِعُيـون المسهَّدين. جميل من الثّلوج أن تَقْضيَ وقتها في أكفـانِ

صَـمتها. جميـلٌ من الفَلـوات أن تُلْقِم أثـداءها للمرضى اللّامرئيين..."

أحيانـاً، نَنسى كُـلَّ هـذا. نجلب الحشـائش وننثرُهـا على الأرائك. بِإبَر الضَّوء نَخِزُ جِلدَ الغسـق. نَضـع الكـؤوس في الزَّوايـا. نُعَلِّـق الكراسيَّ إلى السَّـقف. نُوَقِّـع خُطانـا على شـطحات نهـرٍ مجنـون. ثمَّ نَسـتكين، في انْتظـار الحرائـق الموعودة عند الفجر.

شُرفة

رَنينُ عَضَــلاتِ اللّيــل المعدنيّــة، ضــجيجُ النّهــارات المُتقيِّحة، رصاصاتُ اللّيل والنّهار الطائشة، الرَّماد: ذاك ما تعرفه أيضاً أفواهُنا. من هـذه النُّقطـة انطلقتُ. وهـا هِي تتـدحرج الآن نحـو النُّقطـة المُجـاورة، حيثُ جلس رجـلٌ بهيئـة شـحّاذ. أطلـق وابلاً من الشَّـتائم، قاصـداً لا أحدَ، رُبَّما. شَرب نشيداً من الدُّموع في أقـداحٍ مَكسـورة. بَكى تحت شُرفةٍ تَأوي إليهـا امـرأةٌ كـانت حبيبـتي. رَقَص على الجَمر، وعلى نغمات النّاي. وهي من شُرفتها، ترعى قافلـة التنهُّـدات الـتي تحُجُّ إلى مَهبلهـا، وتمنحُـني عنـد اليقظة كأسَ نبيذٍ وعُشـب الأعمـاق... إنّهـا تُكـرّر: "كتيبـةُ جِراح تُدندن في ساحات قلبي"...

"على الشِّفاهِ أيضاً، تتفتَّح وُرود الدَّم في الفجر..."، تَهْذي

جُمجمةٌ في إحدى الحانات، فيما تُصْدر المومياءُ أوامرَ للقنـاني الفارغـة بالتَّسـكُّع في المزابـل. حتّى إشـعارٍ آخـر، يبقى كلُّ شيء هادئاً.

مُرَاوَدة

اِفتحي فَمكِ قليلاً

وَلْتُوقِظْ أنفاسُكِ عَينيّ

مِن سُباتٍ أَمنحه لطائر

ها أنذا أفتح ذِراعيّ الآن

لأمنحَكِ نبْضَ المَاء الحَيّ

ظلُّكِ يجوب ضفافاً بعيدة

وظلِّي الذي يَتبعه

سقط مُهشَّماً على إفريز الصَّباح

لكنَّ نيراني دائماً تدعوك

عليكِ بِتَلمُّس الجَمرة.

أَصْفِقُ نوافذ النّوم

حَدَث ذلك بمحض الصُّدفة
أمام الجُمجمة المرسومة على جِلد اللّيل الأبرص
ينسجُ الموتُ في حدقتيها حبكتَه البارعة
من ألياف، من بقايا صباحات ذاوية،
أمامَ قطرةِ الخمر المتشبِّثة بحافة الكأس
بيأسِ حيوانٍ فَقَدَ ذاكرته في معركة غامضة
بين الحلم واليقظة،
أمام عينيَّ اللّتين نَمَت فيهما
أعشابُ الكوارث الأليفة
وأجنحةٌ سوداء

تَرِفّ كلَّما بدأتِ المصابيح في الهديل

بِاسمي حين أَصفِق نوافذَ النَّوم

وأمشي على شَفرة الواقع نحو بِركة

في أحلامي

كانت الأقمار الواجفة

تتسلَّل من فتوق الأساطير

ودمُ الأشجار يُدثِّر ظلالَ المهاجرين

كانت الثُّلوج، في رئتي، سادرةً

في أنينها

تُفتّتها أحزانُها

كالعادةِ التي أسدلت السَّتائر

على مشهدٍ أبدو فيه بمحض الصُّدفة

مُغْرقاً ضَجري في جدول شتائم

أحفظها منذ الولادة

تميمةً أعلقها على صدر يمامة

أو امرأةٍ في آخر اللّيل.

حَدث هذا في حضرةِ امرأة آخر اللّيل

التي تركت شيئاً من روحها

في فمي المُثقَل بصرخة

تنطلق دائماً في اللّحظة المناسبة

لتحطِّم الجدار الذي تحتمي خَلْفَه

الرَّايات من الصّفعات

والرُّضَّع من نُباح الساعات المريضة:

بِمحض الصُّدفة سقطتْ دموع الغراب

سقطتِ الأغصان الحمقاء في شَرك الريح

ارتجفتْ قامة الفجر من شِدَّة الخوف

لم يعد بابُ الغرفة يُؤدّي إلى الخارج

صار لا ينفتح إلّا على النَّعيب

سقطتْ طيورٌ نادرة في عَباءة البحر

سقطتْ خُطايَ تحت وطأة الموسيقى

سَقطت عينايَ

في شُحوب الياسمين...

"كان متأجِّجاً، ذلك الهيكل العظمي"،

قالت النّسور

ومِن جِراحي تطايرت

فراشات زرقاء...

إذَّاكَ بَدأ جنودٌ من زَبَد

يُطلقون النَّار

على قَوافل الأيَّام.

مَساءات ماطرة

مساءات ماطرة
حُطام الثَّرى المبتل
يَرِفّ على قدمِي
ورمادُ الأزقّة
يَلفُّ عُرْينَا وخُضرةَ الشَّواطئ

قلوبنا المنتفخة بِالنَّعيب
تتقصّى آثار اختلاجاتها الضّائعة
بِداخلها تهطل أمطار الكآبة

القطط الوَحشيّة تتزحلق
على جَليد ساحات المدينة

المُسيَّجة بقهقهات هوجاء

كَكُلّ مساء

أسير حَاملاً أكاليل

لِمآثر الرّوح المطمورة

أُصغي لهُتاف الدَّم وأرى

فوّهات العتمة الصَّدِئة

مُصَوَّبة لِوَرد خُطانا البارد

وإذْ أحضنُ خَجَلكِ بأصابع عمياء

نضطجع سويّاً على سُرُر الرَّغبة

المقضومة بِأسنان الأنهار

نَقضي اللّيل في الرّحيل

بَين الخُطوة والخطوة

أنقاضُ حلم

لامتِدادِ صَمتِكِ بياض الثّلوج

في لُجّتِه تلذَّذتُ بِغَرَقي

جُزُره تنبض بِصَفير موتي

وأنا مَبهورٌ ببهاء الجرح

أمخر عباب الوَهم

ورأيتُك في باحة مقهى

تغتسلين مِن هذيانك

بِأمطار هذا المساء

لم أكن وَحْـديَ الحـالِم. العاصـفة أيضـاً كـانتْ هنـاك، والينبوع.ونحن تدثّرنا بِغلالة المروق المُشِعّ. نقوم بسفراتنا الخياليّة على متن زوارق مذعورة.

لِفَرَحنا الأعمى اختلاج الدّم

وَلِنَومِنا طُيوره الزَّرقاء

لأصابعنا مَوجةٌ تَسحبها نحو البَحر

لأَقدامنا مُنحدراتُ اللُّهاث الوَعرة

والأنوارُ تَلعَق أكتافَنا

لِسهراتنا مناضد مُكتظّة بالأرَق

هُوَ ذا نَذير الفِتنة وليس بين صمتي

وشعائر الإبادة غيرُ فَجر له بَشَرة الأَرض

والدَّم الذي هُوَ فَجرٌ أَقَلُّ كثافة وأكثرُ غَبَشاً

يُرَقرِق مراياه السّائلة بين الثّوب والجَسد

ثمّة أهازيج، ثمّة صُراخ

أصوات لِأجل التَّمويه

وأنفاق مغروسة بالأصابع

أيّتها النّصال المُقَدَّمَة على أطباقٍ مِن ذَهَب

حدّثينا عن مسالك النَّهب العَظيم
عَن جُثث مأخوذة بِدُوار التّجاهل

حدّثينا، حِن نقف أمامك حيارى
ومع ذلك، كاشفِين عن أُلْفَتِنا

نَسِير في الدّروب الخَلفِيّة
على أَلْسِنتنا رَمادُ المَنفى

أحببنا تلك المَهاوي كثيراً
وكانت ريح المساء تَعبث بِشَعرك
ذي الحَفيف المائيّ

مَرَرنا بِشاعِر مُدَثَّر بِمعزوفة الرّيح
يَحلم بِقمر ميّت
تبكيه بَجَعة وَحيدة

لَم أكن وَحديَ الحالم.
آه، انتظري أيّتها الشَّمس
انتظري وُصولَ دَمي!

مِن هذا الذُّهول، لَم نَرْتَوِ بَعد
نمضي في شوارع المدينة :
أَسْفَلتٌ مَصلوب على فراغات الماء،
وبين الخطوة والخطوة، أنقاض حُلم.

قَبر

مـرّةً أخـرى، تَبـذر دَمَـك في أرضٍ مُجدبـة. تطفـو على صـفحة حياتـك كقطـرةِ زَيتٍ تائهـة أو ككـائنٍ غـريب لم يسبق أن رآه أحد. عُـواؤه غـيرُ المسـموع يَصـبغ الهـواء بِزرقـة جـنين وُجِـد مَرميّـاً وسْـط القُمامـة ذات صـباح شــتائيّ (يمكنكم تصــوّر ذلــك بســهولة). التّحرّيــات في الموضوع أنْهَكَت العذارَى الرّاكضـات في الأسـواق وعلى ضِفاف الأنهار التي تسـافر إلى مكـان مجهـول (رُبّمـا هـو الجحيم). الخُوَذُ تـترنَّح بين الكـروم، تسـتقلُّ القطـارات، تَستنطق الأجيال القادمة. المهمّ أنَّهم لم يمنحوه – أيْ ذلـك الكـائن الغـريب – أيَّ اسْـمٍ حتَّى الآن. لم يمنحـوه ولـو تلـك الزَّهـرة الكليلـة الـتي تُجهش في مُسـتنْقَع، ولـو

بريقَ الـدُّودَة الـتي تَزحـف ليلاً في نُخاعـك. بينمـا تقتنص عينُكَ المفتوحـة مغـامرة في كـلّ ثانيـة. مـاذا يُمكننـا أن نَضَع على قبرك، ونحن لا نرى إلّا انعكاسَه في المياه؟

أشجارٌ غجريّة

إنَّه اللّيل، أُطفئُ آخرَ المصابيح

كَي تولدي، وتَبعثي تحت لسانكِ

الأخضرِ شبابَ الرِّياح

وأحلاميَ المَدفونة في الحدائق

عوسجٌ يتهدَّل تحت جلدي، يُولَد من غيابك

صمتي يحاور ظلالاً

نشيجُ أصابعي بألوانه القُزحيَّة

يتسلَّق أبراجاً عالية

حيث تغسل بقايا الأمواج

عِظامَ بحّاري الفيضان الأخير

قلت: لأجعلْ من أنفاسي رُقْيَة

ضِدَّ تَصدُّع أحلامك الطَّرِيَّة

واسمُكِ بين شفتيَّ جَدولٌ متوفِّز

حُلْمُه أن يُغْرق قلقَ الوعول

في لُجَّة من ضياء النَّشيد...

ها هي الأشجار الغجريَّة

تُخلِّف جُذورها وتَهيم في البعيد

ها أنا أُعلِّق تميمةً من الضّحك

على قَفا بركان

وأُطفئ آخر المصابيح

كي تُولَدي!

مُعَـادَلات

ساهماً، يُنصت لوقـع أقـدام الحُـرَّاس في الـرِّواق، حيثُ تَغفو تماثيلُ أسيرة. باردةٌ ضلوعي اليـوم كَعِطْـرِ الأرض القابع في محـاجر المـوتى ـ يقـول باسِـماً ـ كعينِ الشَّـاعر المُدخِّنة، وَدُموعِ الفلكيِّين القُدامى. كان مُؤَرَّقاً بِهُمـوم فَجر كسـيح، وسَـمع ثُغـاء فزَّاعـات مَزروعـة في خاصـرة الخريف، أشجاراً تُجْفِل من كوابيسها، أنهارًا تَفتح غُرفها السِّرية للأرامـل... بـدأ يكتب أرقامـاً ورمـوزاً. عن مِروحـة هاربــةٍ من السِّــجن. عن انفعــالات الحِــبر. ضــحكِ المومسات المُتبَّل. عن معاناةِ أجراس اللّيل, عَن سُمكِ كلمـة جـدار. وكـان مُؤَرَّقـاً بِوحشـة مَـوطن الصَّـيحة والقروح.

عَلى رَصيف مقهى

لا أحـــدَ من بينهمْ كــان في حاجـــةٍ إلى الألم. أهـــازيجُ غامضة تتردّد في حناياهم، فيمـا تهبُّ أنفـاسٌ مُتقطِّعـة من ناحيـة التِّلال. عصـافيرُ شَـاردة تَسـقط بين الفَيْنـة والأخـرى في عُبِّ المـرأة ذاتِ الوجـه المُطَـرَّز بـالثُّقوب. والغيوم الورديَّة الثلاث، والتي هي قوارب مُتْرَعة بِنُخـاع الكـواكب، يَـدفعها النَّسـيم نحـوَ شُـطآنٍ آهلـةٍ بالأجنّـة. الجنديُّ الوافد عبر مَفاوزَ مُوحِشة، يُطارد في المرآة كَلباً أجْرب. أحدُهم يُحاول أن يَقول شيئاً من دون أن يُحرِّك شفتيه. أَحَدهم يتحسَّـسُ عِظامـاً تتفتَّت في جيبـه. صـبيٌّ مُجنَّح يَتوقَّف عنـد كـلِّ منضـدة خَلْفَها رَجُـلٌ جـريح. ثُم يُفـرد أصـابعه المخمليّـة ويختفي في الضَّـباب الكـثيف.

والأعمى، النّـائي عن الآخـرين، يَغـوص في ميـاه وحشـته،
أهدابُه مُسْبَلة على صَرخات وبروق...

لا أَحَدَ من بينهم كان في حاجة إلى الألم.

مَرثيَّـة

كان قد نسيَ كلّ شيء: قُبّعتَه في الـدُّولاب، ذكرياتِـه على طِوار مهجور، وجهَها في نهاية قصيدة قديمـة، سُـترتَه في سِرداب، أسماءَه في دفاتر الطّفولـة... تمـدَّدَفوق بسـاطٍ مِن رماد، حواليه أحجـار تـرنُّ في القيـظ وأنيـابٌ مُبَقَّعـة بالدَّم... في المسـتنقع القـريب، كـانت الطَّحـالب هامـدةً وقـد أَنْضَـاها الحـنين. ولم يكن هُـوَ لِيلمحَ شـيئاً من كـلّ هذا. ولا الهيكـلَ العظمي الـذي يشـتعلُ على هضـبة. ولا ألسنةَ الخريف التي تهذِي وتتهرأ...

خيبةُ الصّباحات الكالحة غرقتْ في لُجَّة ضَحِكهِ الهادر.

خيمةُ الغبـار

مِن جديـد، بـدأتِ القـواربُ الكاسـرة تخيـط بمِسـلّاتِها الذّهبيّـة أفـواهَ الأنهـار، بينمـا الخريـفُ يَنسـج علامـاتِ استفهام على وجوه العابرين! نبوءاتٌ وخِيمةٌ أَستشفُّها في عينَي يمامةٍ تُحتضر، وأخبارٌ غامضة تبثُّها إذاعة الزَّبَد عن مصـيري الأكـثر غموضـاً. أحيانـاً، أُقيم مـع سَـدنة العشب في ظلِّ أساطيرَ سامقة، بينمـا تتوغَّـلُ أنفاسي في فَجـوة الجبـل العميقـة، أو أمضي إلى كهـفٍ بعيـد، أرى فيه العلماءَ المُقْعَدين يَفكُّون ألغازَ سَيْر الحقول. كنتُ، أيضـاً، أُجـالسُ صـديقي الـذي يَشـتغل بِمنجم الـدُّموع السَّـوداء، لِنَسـتغربَ قليلاً من طُفولـة النَّيـازك وبُكـاءِ الحجـر اليـتيم. لكنَّ القنَّاصـين الـدُّهاة كمنُـوا لـه ذات مسـاءٍ في خَيمـة الغبـار. ومُـذَّاكَ، صِـرتُ أتطلَّـع إلى كـلِّ

هَيْكلٍ عَظمِيٍّ يُدندن في حانة، وكـلِّ ميِّتٍ يُحَمحم تحت نافــذتي، إلى أن نســيتُ ملامحــه كلِّيــةً. بقيتْ دمــاءُ السَّـنَاجب تَـزورني، وسـاعي بريـد المَـرارة، الـذي كـان يَحمـلُ لي رسـائلَ على هيئـة سلاسـل، وبطاقـاتِ بريـد تسعُلُ فيها الغربان... وطَلَع حرّاثو الأمواج الخِصـبة، مِن أكـواخهم في عمـق المحيـط، لِيَقومـوا بمسـيرة احتجـاج من ســـاحة الألَم العظيم حتّى مقـــرِّ إقامـــة العَظْم المتلألئ. جـاء الرُّعــاة العُميــان أيضــاً. وحُــروفُ الجــرّ المُعذَّبة. جَـاء حـرّاسُ قـوس قُـزح. وغلايينُ سُـودٌ كأنَّهـا من شُيوخِ بني حام... ومضـتِ الحشـود على ضِـفَّة النّـار، ضاربةً في أرض الوحشة الزَّرقاء... في ذلك الـوقت، كـانت الأزقّـة الخلفيَّـة تتلـوّى على أعنـاقِ الـذِّئاب، والمطـرُ، مُشعَّثاً، يتقافزُ على إيقاع قَرْعِ الطُّبول.

عَصافيرُ سَكْرَى

ثَمّة حانةٌ أُنادم فيها أشكالاً هُلاميَّة، تَرقبنا عيونٌ لِمَوتى، وهي لا تزال تنبِض، منسيَّةً في الكؤوس وعلى المناضد. زَفير السَّاعاتِ يَنكأُ جِراحَ حكاياتٍ غامضة، بينما تبحثُ قَطرةُ خمر وحيدة عن معنىً لِلحياة داخل حَنجرة سكِّير. الجنود الذين حاربوا في السَّراديب وعلى أرصفة المقاهي يُصَوِّبون بنادقَهم إلى قلب تمثالٍ يترنَّح مُعربداً. والطِّفلةُ التي تَهْجَع منذ لحظات، تَحلم بعصافيرَ سَكرى تَنقرُ لسانَها الورديّ. على عتبة الباب، يَقف شحَّاذٌ باسماً، فيما تتسكَّعُ روحُه بين صناديق القمامة، بحثاً عن قنانٍ فارغة. "أنتَ شجرة مأفونة، أنتَ غيمةٌ مُخَدَّرةُ الحواسّ، ذَرَّةُ رَمل تَبْكي في أعماق المُحيط.."، يقول النّادل المقنَّع لِلكهل الذي يعملُ

ساعيَ بريـد بين النّجـوم. لكنّ هـذا الأخـير كـان يَغطسُ عمودَه الفقريّ في دَوْرَق مِن نَبيذ بابل، ويُفكِّر في عـذاب البشرية الذي يتمرأى في شَاشة صَمْتِه العنيد.

أُعيدُ تكوين المشهد، فأرى وجهي مثقلاً بكلمات ذابلـة. كلمــاتٍ، أنفاسي ستســحبُها خلفهــا إلى حيث تــرتعش عظـامُ البحــر.. لحظـاتٍ وأمضي من شـارع إلى شـارعٍ يُطارد خيولاً غريبة، وهي تَهرع نحو بَـرارٍ مُـدَثَّرة بِغَسَـق الكحول. لحظاتٍ وأجلس إلى منضـدة من زَبَـد، لأُنصـت إلى أقمارٍ شاحبة وهي تَبْذر كآبتها في كأسي الأخيرة.

نَجمات وديعات

كَكُلِّ مساء، يَرى الطُّيور المراهقة

تتملَّى صُوَرَها في مرايا البحر، وَنصالَ

الشَّمس تَحْتزُّ أعناقَ

سُحُبٍ على هيئة ذئاب

يَرى السَّاعات الرَّتيبة تأكل قَمح عينيه

يَذْكر أنَّه كلَّما قطع أنهارَ

النّومِ الشَّاسعة

في سفينةِ الأجداد

استيقظَ في غابةٍ تَضِجُّ

بِهديل طفولته المُرصَّعة بالنَّيازك

بِزئير شجرة أكاسيا

لها رأسُ نمر عجوز

كانتْ قدماه تَمضيان

عَلى أسلاك الوَجْد الشائكة

كانتْ عيناه تتلقَّفان

بُروق غَوَايَةٍ

مِن نَجمات وديعات

وكانت النّار الفتيّة

تَحنو على جبين الثلوج

حين أضاءت الطّرائدُ ليلَ

الغُرباء بِقناديل دَمها

بدأتْ أحلامُه تُهَدهد أزهاراً

تَيْنَع سِرّاً

في حَدقات المُروج.

عَلى دَرَجِ المياه العَميقة

على سَطح المِرآة، دَمُ خُفّاش
عُرْيُ اللّيلِ يَطول
حتّى تتفتَّح أزهارُ القصيدة

أَفُكّ بَراغي الخُرافة
فتسقطُ جَوهرة النّار
مِنْ سُرّة عذراء

في مكانٍ ما
واحةٌ تُنصت لنبضِ عينِي
بينما تجوسُ يَداكِ

سلالمَ المُوسيقى

قُولي إنّها المنارات

تُطأطئ هاماتِها

في أفق يتغضَّن ويرتعش

ها ثلجُ عِظامِك يَتَلألأ

مُبْيَضّاً بالزَّبد

كَنَصْل على سرير فارغ

وشاحناتُ الموت المُترهّل

تَعوي على أرصفة الجحيم

أرى الحمامة التي تحطّ

على كتفك العارية

فأُصابُ بِسهام اللّيلك

عُنقودُ جداولَ على عنقك

أمنحكِ جَمراتي فستاناً

نُقيم لِلغرباء سهرة

في سُهاد الحديقة

لَحظةً وينسدلُ الهذيان على شَعرك

كضوءٍ يَلحس جسده الهامد

الصّفصافة أيضاً لم تَعُد تُحبّ أوراقَها

بعد الشَّفقِ الضّائع في ابتهالي

إِنْ هُو الّا سِربُ أفكار

يَحطّ على جناح طائر

وموجةٌ تَضجّ

في قفصك الصدري

على دَرَج المياهِ العَميقة تَمشين

تتقدَّمك مصابيحُ شتاء قارس

وعلى الرمل أتمدّد

مُثخَناً بِجِراح نسر

التقيته ذاتَ يوم في صَحراء

وكان صديقَ أحلامي

هل أقول إنّ أصابعَ النهر

يأكلها النّدم

هل أُنصت للدَّمعة التي

تَهطل بغزارة

من ثُقب في حذائي

أم لصرختِهِ نجمة في غابة

أم أخطو نحو منتصف اللّيل!

أَقاليم...

ثمّة أقاليم مَنسِيّة

نحلم أن نبعثها في ذاكرة الأرض

أقاليمُ منسيّة كغيوم بلا أجنحة

سنجمع سلالمَ لنعبر إليها

ونَطرق أبواب الولادة

بِعُكّاز حِكمة مَجنونة

بِقبضة الدَّم النّافِر

ثمّة حمائم تُرافقنا

ستنتشي بِظلالنا حين ننفض عنّا

غُبَار الطّريق

قبل أن نمضي من جديد

مُهتدين بنجمة في القلب

ثمّة ألسنة لهب

تتراقص على أهدابنا

هل هي إلّا

التماعات أحلام.

نِمـال تَهْزج في رِئتيّ

مُبهَمةٌ هذه الحقائق التي تَرْسـمها الغِربـان على شاشـة الرُّوح. مبهمةٌ نَوايا الرِّيح الـتي تَنصـب الفِخـاخ لِقَـدميَّ، وهمـا تضـربان في أرض البلـوى والجُـرح، حيث تتـدحرجُ رؤوس العنــادل على بســاط أنفاسي القديمــة... أتــرك الظِّلال الوارفة لآلام نـورس، وأمضي لِلعمـلِ في مكـاتب الرَّمل، كي تسخنَ عظـامي... مـرَّةً واحـدة، سـينفثُ فمي أنقاضَ اللّيـل ومَرايـاه اللَّعـوب، أنـا الـذي تـركتُ وجهي رهينَ أهــدابِها: هي الطَّالعــة من بـئر الـزَّمن السّــاجي. العابرةُ من المقهى إلى الهديل ومن الهـديل إلى غرفـتي التي تجلدها شُهبٌ فتيَّة. وحقيقةً توجَّستُ منْ كـلِّ تلـك الغُضون التي ظهـرتْ على الجُـدران. ومن الثُّقـوب الـتي بـرزت في الشراشـف والأحذيـة. من البثـور في وجـه ملاك

حيَّاني وصار رماداً. من أنين الجلَّنار في حديقة صمتي. مِن صمتي في سرير الهاوية. ومن الهاوية نفسها. ومِن نَفسي. ومن أنفاسها، حين تَمزج الماءَ بالحُمَّى وتَعْبث بِالأعشاب اليائسة قُرب رأٍسي. قلت: "الأنهار مَنفيّة من مَهد أحلامها". وقالت: "سِربُ دُموع يَحطّ على نهدِي. أَنْصِتْ لِهذه الموسيقى التي تنبثق من عيون الباب...". يُمكنها أن تَستمرَّ حتى يتهرَّأ أديمُ الكلمات. سأبقى متنصّتاً للنّمال التي تَهزج في رئتَي. مُبهمٌ دبيبُها في شراييني، كَرَفيف أجنحة الموتى.

بدأتْ هذه الثُّلوج تصدأ

أقفُ تحت نافذةٍ تتردَّد خلفها شكاوَى عَجزة ومتسوِّلين يتقاسـمون خُبْـز الملاحم القديمـة. أقـفُ تحت مَطـرٍ يَقضم نهدَ عذراءَ تَركض في مفازة العـذاب، خلال هـذا المسـاء الـذي يرْفُـل في فسـاتينَ من عوسـج. طواحينُـه تُفتِّت عِظام الملائكة. وأنا الذي استهللتُ هـذا الإعصـار الجميل، لا أرى على شاشته إلّا أقـدامَ المـوتى، مغروسـةً في صَـناديق القُمامـة، تتشـمّمها الـذئاب... بـدأتْ هـذه الثُّلـوج أيضـاً تَصـدأ أمـام عيـنيَّ اللّـتين كانتـا يمـامتين سَـجينتين، وَجَلـدهُما أقـزامٌ كـانوا لا يغـادرون بُطـونَ أمّهاتهم إلّا خِلال أَعياد المَجوس. نـيرانُهمْ تَتثـاءب على وسادتِي كلَّ صـباح. دُمـوعُهم تَصْـهَل في مَحْجِـريّ، فِيمـا أَصْنع حماقاتٍ مُشِعّة من رماد الأيّـام، وأترصّـد أبوابـاً

تُهرول بِأَقـدامٍ آدميَّـة، منهـا سـأدلفُ إلى مـدن الماضي، مُنقسماً إلى جُسوم كثيرة. قد يكون أحدُها هذا الشـحّاذ الـذي يغفـو في مَحـارة بِحَجم خـرائبِ عُمـره الطّويـل. ومثلما يندلع شَبَق النّار في قشٍّ صيفٍ جميل، سـيأخذني الحـنين إلى سـاحاتٍ مُكتظّـة بالمهالـك، إلى مـرافئَ تَرْسـو فيهـا سُـفن مُحمَّلـة بقلـوب الأرامـل، إلى سـريري الـذي أمضي إليه عَبْر جسور سبعة، تتمدّد على كلٍّ منها امرأةٌ تفتح لي ذراعين من غبــــار.. وحين أصــــل إلى نقطــــة انطلاقي، أَضـيعُ، نشيداً في فَم العاصفة.

صَدَرَ لِمبارك وساط

<u>* في الشِّعر :</u>

على دَرَج المياه العَميقة (دار توبقال، 1990- منشورات عُكاظ، 2001)

مَحفوفاً بأرخبيلات، يليه : راية الهواء (منشورات عُكاظ، 2001)

فراشة مِن هيدروجين (دار النّهضة العَرَبِيّة، 2008)

رَجل يبتسم لِلعصافير (منشورات الجَمَل، 2011)

عُيون طالما سافَرَتْ (منشورات بيت الشِّعر في المَغرب، 2017)

جماجِم غاضبة بِسَبب الطّقس البارد (دار جِدار، 2025)

مختارات شِعريّة بالعربيّة والفرنسيّة، تحت عنوان:

Un éclair dans une forêt (Al-Manar, Paris, 2010)

<u>* رواية :</u>

وَديعة خُفاف (مَنشورات المُتوسّط، 2023)

<u>* ترجمات:</u>

ممّا ترجمه مبارك وساط :

* شَذَراتٌ مِن سِفر تكوين مَنسيّ -

عبد اللطيف اللعبي - منشورات الموجة - 2004

* نادجا- أندري بريتون، منشورات الجَمَل، 2012

* التّحوّل- كافكا، منشورات الجَمَل، 2014

* الأبديّــة تبحث عن ســاعة يــد، مختــارات مِن شِــعر أنــدري بريتــون (منشورات الجَمل، 2018)

* ستُولَدُ شمسٌ مِن أهدابك- جمال الدين بن شيخ (2020)

* دَمي الذي يَرْشو اليأس- محمّد خير الدّين (2022)

فهرس

مُدَوَّنة مبارك وساط :

https://7ibr-ouassat.blogspot.com/



واجهة غلاف الطّبعة
الأولى (1990)



واجهة غلاف الطّبعة
الثّانية (2001)

ملاحظة لِلمؤلِّف بِصَدد الطّبعتين الورقِيّتين:

صَدَرت الطّبعة الثّانية لِمجموعة "على دَرَج..." سنة 2001، عن منشورات عُكاظ، في كتاب شِعريّ يَتضمّن أيضاً مجموعتين أُخريين في طبعتهما الأولى. وعلى عكس ما كان عليه الحال أثناء طباعة "على دَرَج..." مِن قِبَل دار توبقال،

فقد أُتيح للمؤلّف أنْ يُراجِع الطّبعة التّجريبية للكتاب الشِّعري الذي صَدَر عن منشورات عكاظ قبل الطّبع النّهائيّ، لِذا جاءت "على دَرَج..."، في طبعتها الثّانية الصّادرة عَن منشورات عُكاظ، مُتخلّصة مِن شوائب الطِّباعة ومُحكَمة.

عَلى دَرَج المياه العَميقة

شِعر

مبارك وساط

رَقميّات
مَنارة